مطلوب أن : تفتح المصحف لمتابعة الأفكار الرئيسية والأهداف للآيات المقدسة

سُورَةُ الطَّلَاقِ

ترتيبها ٦٥ — آياتها ١٢

١-٣	سورة الطلاق : تشريعات إلهية في الطلاق، أحكام في الطلاق السني والطلاق البدعي.
٤-٧	تشريعات إلهية في العدة، والعدة بمختلف أنواعها حق لله تعالى، وفيها حق للزوج.
٨-١٢	تحذير لمن تعدى حدود الله، وسنة الله تعالى في عباده في عقاب المعاندين، وجزاء المؤمنين الطائعين لله ولرسوله، وتذكير بعظيم قدرة الله وعلمه بجميع مخلوقاته.

(الآيات ١-٣)الأمر بإحصاء العدّة في الطلاق زماناً ومكاناً ونفقة كما حددها الله، وهي مدّة من الزمن تبقى فيها الزوجة في بيتها، لعل الله يحدث خلالها أمراً يكون السبب في العدول عن الطلاق واستمرار الزواج، {وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ (١)} بأن عصى فيعاقبه الله، ثم خسر بأن تعجّل في الطلاق وتفرّقت العائلة. فإذا قاربت المطلقات نهاية عدتهن فراجعوهن أو فارقوهن بمعروف، ومن يتّق الله ويتوكّل عليه يجعل له مخرجاً من كل ضيق، وييسّر له أسباب الرزق من حيث لا يخطر على باله ولا يكون في حسبانه {قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (٣)}.

(الآيات ٤-٧)والمطلقات اللاتي انقطع عنهنَّ الحيض لكبر سنهنَّ والصغيرات اللاتي لم يحضن فعدَّتهنَّ ثلاثة أشهر، وذوات الحَمْل عدتهن أن يضعن حَمْلهن {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا (٤) ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ}، ومن يتق الله بطاعته وباجتناب معاصيه يكفر عنه ذنوبه، ويجزل له الثواب. ويجب بقاء الزوجة في سكنها طوال فترة العدّة مع عدم المضارّة للتضييق على الزوجة، وعلى الزوج الإنفاق حتى نهاية العدّة، فإذا وضعت

الحامل حملها فلها أجرة الرضاعة، أو ترضع له أخرى؛ لينفق الزوج مما أعطاه الله {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا (٧)}.

(الآيات ٨-١٢)الكثير من القرى هلكت بسبب عصيانها لأمر الله ورسوله، وقد حوسبوا حساباً شديداً في الدنيا وكان عاقبة كفرهم هلاكاً وخسراناً، وأعدّ الله لهم عذاباً شديداً؛ فاتقوا الله يا أصحاب العقول الذين آمنوا وقد أنزل الله إليكم ذكراً: {رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ (١١)}، ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً. الله الذي خلق سبع سماوات وسبع أراضين، يتنزّل الأمر بينهن لتعلموا أنه على كل شيء قدير وأحاط بكل شيء علماً.

نسأل الله الهدى والتقى والعفاف والغنى وحسن التوكل عليه، ونسأله سعة الرزق وتيسير الأمور وتكفير السيئات ومغفرة الذنوب.

بعض التفاصيل عن موضوع السورة:

تقديم: جعل الله دينه الإسلام، الذي به استسلم وانقاد وخضع له كل من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً، وجعل للناس في هذا الدين العبادات رحمة بهم، لأن في تطبيقها صلاحهم وخيرهم وسعادتهم. ولأن الإنسان كان قد ظلم نفسه ابتداءاً، عندما حَمَل الأمانة جهلاً، بعد أن عُرضت على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها، والأمانة هي طاعة الإنسان لله باختياره، ولأن الإنسان بدون تقوى الله مفسد في الأرض ويسفك الدماء، وهذا من أصل تكوينه وطبعه وجبلته، بدليل نص القرآن وما وجدناه من سيرته وتاريخه. فلم يتركه الله الرحيم العليم الحكيم وحيداً يتخبط على الأرض بلا هداية، بل أنزل عليه الذكر فحذّره وأنار طريقه وأنذره وبشّره في كل خطوة خطاها وكل مكان وجد فيه وكل ثانية من ثواني عمره.

الله خلق الناس لا يعلمون شيئاً وجعل لهم السمع والأبصار والأفئدة، فكان لا بدّ من تذكير الإنسان أولاً وتدريبه على الالتزام بالحق والعدل والفطرة، والتي هي دين الله وشرعه وسنته في خلقه، وفي الحياة التي بنيت على الأسباب. ثم من أجل إقامة الحجة عليه بأنه يتحمل مسئولية قراره بحمل الأمانة ونتائج أعماله، جعل الله دينه وشرعه هو الفطرة التي فطر عليها الإنسان وجعلها على شكل أوامر أفعل أو لا تفعل، من يلتزم بهذه الأوامر تصعد به إلى أعلى درجات الإيمان، ومن لا يلتزم بها يسقط في وادي النفاق والكفر والعياذ بالله. ومن رحمة الله الواسعة بالإنسان سيّره خطوة خطوة نحو الالتزام بالعبادات والإيمان التام: جعله يبدأ بالإسلام وهو استسلام الجوارح، ويتدرب من خلالها على الإيمان، ثم الإحسان، حتى يتخلق بخلق الحق والعدل والفطرة، فيصير عمله متساوق مع صلاح الكون والذي نقيضه الفساد. وكل ما جاء في القرآن والسنة من أمر بفعل ومعروف أو نهي منكر فهو من العبادات التي هي فطرة الإنسان، ينطلق من خلالها ليتعرف على خالقه الحق بأسمائه الحسنى وصفاته العلى. وقد تكون العبادة في البداية عند كثير من الناس رياءاً أو نفاقاً، فيجب التدرب على أن تكون كل أعمالهم خالصة لله، بأن يروا منافعها الدنيوية كبشارة على صدق توجههم، فيواصلوا في طريق الحق والسعادة.

هذه السورة تبين حدود الله في الطلاق، التي يجب أن يلتزم الإنسان بها أمراً بفعل أو نهياً عن فعل، وسنرى من خلال تطبيق هذه الأوامر كيف يتعلم ويتدرج تدريب المؤمنين على الإيمان، وكيف يحصلون على الخير والبشارات من الله إن هم أطاعوا، أو يخسروا كل شيء إن هم عصوا:

الآية (1)من المعلوم أن مصلحة جميع الناس سواء الذين يهمهم الأمر أو الذين لا يهمهم هو بأن يدوم الزواج، من أجل ذلك فرض الله العدّة، وهي مدّة من الزمن يلتزم بها الطرفين قبل حصول الطلاق، لعل الله يحدث خلالها أمراً لم يتوقعوه يكون السبب في العدول عن الطلاق واستمرار الزواج؛

ومن لم يلتزم بهذه الحدود التي حدّها الله فقد ظلم نفسه بأن عصى الله الذي سيعاقبه على عصيانه، ثم خسر بأن تعجّل في الطلاق وتفرّقت العائلة.

الآيات(الآيات 2- 3) فإذا قاربت المطلقات نهاية عدتهن فراجعوهن بمعروف، أو فارقوهن بمعروف، وأشهدوا على ذلك رجلين عدلين منكم، وليؤدي الشهود الشهادة خالصة لله لا لشيء آخر، ذلك الذي أمركم الله به يوعظ به مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر.

وقد جعل الله بشارات عديده لمن يعمل بما أمره به، ويجتنب ما نهاه عنه، وهي: أنه مؤمن بالله واليوم الآخر، ويجعل له مخرجاً من كل ضيق، وييسِّر له أسباب الرزق من حيث لا يخطر على باله، ولا يكون في حسبانه.

ومن بعد تلك البشارات التي هي حقائق تحققت للمؤمن ولمسها في حياته، فسوف يتوكل على الله الذي هو كافيه ما أهمَّه في جميع أموره. ويؤمن بأن الله بالغ أمره، لا يفوته شيء، ولا يعجزه مطلوب، قد جعل الله لكل شيء أجلاً ينتهي إليه، وتقديراً لا يجاوزه.

الآيات (الآيات 4-5)والنساء المطلقات اللاتي انقطع عنهنَّ الحيض؛ لكبر سنهنَّ، إن شككتم في حكمهنَّ؟ فعدَّتهنَّ ثلاثة أشهر، والصغيرات اللاتي لم يحضن، فعدتهن ثلاثة أشهر كذلك. وذوات الحَمْل من النساء عدتهن أن يضعن حَمْلهن.

البشارة في الدنيا لمن يتق الله، فينفذ أحكامه، أنه يجعل له من أمره يسراً (لأنه هنا في الطلاق ربما يظن الناس أن مدّة العدّة طويلة وخاصة عدّة الحامل فييسرها).

أما في الآخرة، فإن ذلك الذي ذُكِر من أمر الطلاق والعدة، هو أمر الله الذي أنزله إليكم لتعملوا به. ومن يتق الله بطاعته وباجتناب معاصيه، يكفر عنه ذنوبه، ويجزل له الثواب ويدخله الجنة.

الآيات (6-7)أسكنوا المطلقات في عدتهن مثل سكناكم وعلى قدر سَعَتكم وطاقتكم، ولا تلحقوا بهن ضرراً؛ لتضيّقوا عليهن في المسكن، وإن كنّ ذوات حَمْل، فأنفقوا عليهن حتى يضعن حَمْلهن، فإن أرضعن لكم فوَفّوهن أجورهن، وأتمروا بينكم بمعروف، وإن لم تتفقوا في الإرضاع، فستُرضع له أخرى غير الأم المطلقة.

يبشر الله المطيع في السكن والإنفاق على مطلقته بالسعة والغنى بعد الضيق والشدّه: لذلك لينفق الزوج إذا كان ذا سَعَة في الرزق، مما وسَّع الله عليه، والفقير الذي ضُيِّق عليه في الرزق فلينفق مما أعطاه الله، لا يُكَلَّف الله نفساً إلا ما آتاها. سيجعل الله بعد عسر يُسراً.

الآيات (8-10)يعظنا ربنا في هذه الآيات (بعد أن علّمنا تلك الدروس من تجربة الطلاق)، أن كثير من القرى عصى أهلها أمر الله وأمر رسوله، فحاسبهم في الدنيا حساباً شديداً، وعذَّبهم عذاباً منكراً، فتجرَّعوا سوء عاقبة كفرهم، وكان عاقبة كفرهم خسراناً. وأعدَّ لهم في الآخرة عذاباً شديداً.

نتعلّم من تجربة تلك القرى التي خالفت أمر ربها وأمر رسوله، فعذبت وأهلكت، أن يزيد إيماننا بما نراه من صدق وعده، فنتقي الله ونخافه ونحذر سخطه، وهو خطاب موجه ويستفيد منه أصحاب العقول الذين آمنوا. وفي هذه التجربة ذكراً يذكرنا بتقوى الله وعدم مخالفة أمره، ويضاف إلى البشارات والدروس المستفادة من الطلاق والتي تزيد من إيمان المؤمنين.

الآيات (11-12)تعلّمنا من الآيات السابقة درسين إيمانيين: الأول من خلال البشائر والكرامات التي حصلت بسبب طاعة الله وعدم تعدّي حدوده في الطلاق، والثاني بالتخويف من هلاك القرى ومن أن يصيبنا ما أصابهم.

وقد أنزل الله إلينا ذكراً يذكرنا به، بأن أنزل الله إلينا رسولاً يتلوا علينا آياته مبينات لنا الحق من الباطل؛ كي يخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان. ويبشرنا بأنه من يؤمن بالله ويعمل صالحاً،

يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار، خالدين فيها ابداً، قد أحسن الله له رزقه في الجنة.

يعلمنا الله أنه وحده الذي خلق سبع سماوات، وسبع أرَاضين، وأنزل الأمر مما أوحاه الله إلى رسله وما يدبِّر به خلقه بين السماوات والأرض؛ لتعلموا أن الله على كل شيء قدير، وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً.

الخلاصة: أننا تعلمنا الإيمان من خلال طاعتنا والتزامنا بحدود الله في الطلاق، ومن معرفتنا بما حصل للقرى من قبلنا، ومن الذكر الذي نزل مع الرسول، وأننا الآن على يقين بأن أمر الله هو الحق، فلا يخرج شيء عن علمه وقدرته.

الشكل العام وسياق السورة:

سميت السورة بهذا الاسم لأنها تضمنت أحكام الطلاق (الطلاق السني، والطلاق البدعي). وتسمى النساء القُصرى. إسم السورة يدلّ على أهمية موضوعها، ويوحي بخطورة المشهد العسير المؤلم الذي يحدث فيه فسخ رابطة مقدسة أو فطرة فطرها الله.

حالة الطلاق هذه من أصعب الحالات الإنسانية، لأنها تفصل شخصين ارتبطا برباط مقدس نتج عنه روابط متعددة متشعبة مع الأبناء والأنسباء والأقارب من الطرفين، ولا يمكن فصل كل هذه الروابط بفصل الزوجين فقط، ولا يمكن إنهاء نتائجها، ولا حتى إنهاء وجودها كلّياً بسبب بقاء المسؤوليات الدينية من صلة الأرحام والالتزامات الأخلاقية بوجود الأسرار العائلية، والالتزامات المالية والأولاد والصلات التي بنتها أو نتجت عنها حالة الزواج ثم الطلاق.

تتحدث السورة عن الطلاق كموضوع يصعب جداً فيه اجتناب تعدي حدود الله، إلا إذا التزم الأطراف بتقوى الله ومراقبته، لأن في الطلاق تراكم عداوات وإشاعات وأمور نفسيّة ومادية ومعنوية ومصالح دنيوية ومسؤوليات جسام تتطلب تضحيات مالية وتحتاج إلى صبر وروية وتقوى دائمة لله وتوكّل ومراقبة. وقد استخدمت السورة موضوع الطلاق من أجل تسهيل فهم مقصدها المتعلق بالإيمان والتقوى واتباع أوامر الله عن طريق ربطه مع خلق

السماوات والأرض وتنزيل الأمر بينهنّ من أجل أن يعلموا أن الله هو الخالق القدير المحيط بكل شيء علماً فيتقوه ويطيعوا أمره.

من سنن الله في خلقه أنه جعل من كل شيء زوجين {ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون (٤٩)} الذاريات، بما في ذلك الإنسان، فهو غير مستثنى من هذه القاعدة. لقد جعل الله الحياة الزوجية سكن للإنسان {ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودّة ورحمة (٢١)} الروم. كما أن استمرار الحياة الزوجيّة واستقرارها هي غاية يحرص عليها دين الإسلام بغرض السّكن للزوجين والتنشئة الصالحة للأولاد. ولما أراد الله سبحانه، رحمة بالزوجين والأبناء، بقاء الرابطة الزوجيّة التي سمّاها بالميثاق الغليظ {وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً (٢١)} النساء، فقد نظمها بحكمته وأدارها بدرايته. فأمر بتزويج من لم يتزوج وأمر بتسهيل الزواج وعدم تعقيده بقوله: {وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله واسع عليم (٣٢)} النور، وجاءت الأحكام الشرعيّة لا تبيح الانفصال الفوري للمطلقين إلا بعد أن تستنفذ كل وسائل الحلول الممكنة بين الطرفين. ويجب أن تستنفذ مدّة العدّة كما حددها الله. وقد جعل العدّة لعلّ أمر ما يحدث يعيد المياه إلى مجاريها. لأن الله سبحانه لم يشرّع الطلاق إلا إذا صار ضرورة ملحّة لا يمكن تجنبها. فرابطة الزواج مقدسة جعلها الله ولا يريد لها أبداً أن تنقطع. روى أبو داود والحاكم وصححه عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "أبغض الحلال إلى الله عز وجل الطلاق."

هذا الحدث يتطلّب أخلاق فوق العادة وصفات يجب أن يتحلى بها أصحاب العلاقة، بيّنها الله تعالى في السّورة من الإيمان والتقوى وعدم الاعتداء على حدود الله وعدم المضارّة والتعامل بالمعروف والإنفاق. فقد علم سبحانه خطورة وصعوبة الطلاق على كل أطرافه، وانه قد يبدر من بعضهم ظلم أو قسوة أو مضارّة. فكان الأمر به مصحوباً بالترغيب والترهيب وبالحث على التقوى وعلى الائتمار بالمعروف وعلى الإنفاق وغيرها من الأخلاق العالية الغير عاديّة التي يحتاجها الموقف.

وقت ومناسبة نزولها:

في الحديث الصحيح الثاني الذي سيأتي: كان النبي صلى الله عليه وسلم في بيت حفصة فزارت أباها، فلما رجعت أبصرت مارية القبطيّة في بيتها مع النبي صلى الله عليه وسلم. ومارية هذه أهداها له المقوقس القبطي صاحب الإسكندريّة ومصر في سنة سبع من الهجرة وولدت له إبراهيم في ذي الحجّة سنة ثمان من الهجرة. مما يعني أن هذه السورة نزلت في الفترة الواقعة ما بين السنة السابعة والثامنة من الهجرة.

أخرج ابن سعد وعبد بن حميد والبخاري وابن المنذر وابن مردويه عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يمكث عند زينب بنت جحش ويشرب عندها عسلاً، فتواصيت أنا وحفصة إن أيّتنا دخل عليها النبي صلى الله عليه وسلم فلتقل إني أجد منك ريح مغافير أكلت مغافير، فدخل إلى إحداهما فقالت ذلك له، فقال: "لا بل شربت عسلاً عند زينب بنت جحش ولن أعود"، فنزلت: {يا أيها النبيّ لم تحرّم ما أحلّ الله لك (١)} إلى قوله: {إن تتوبا إلى الله (٤)} لعائشة وحفصة. {وإذ أسرّ النبيّ إلى بعض أزواجه حديثاً (٣)} لقوله: "بل شربت عسلاً."

وأخرج البزار والطبراني – قال السيوطي: بسند صحيح – عن ابن عباس قال: قلت لعمر بن الخطاب: من المرأتان اللتان تظاهرتا؟ قال عائشة وحفصة، وكان بدو الحديث في شأن مارية القبطيّة أم إبراهيم أصابها النبيّ

صلى الله عليه وسلم في بيت حفصة في يومها، فوجدت حفصة فقالت: يا رسول الله لقد جئت إليّ بشيء ما جئته إلى أحد من أزواجك في يومي وفي دوري على فراشي، قال: "ألا ترضين أن أحرمها فلا أقربها أبداً" قالت بلى، فحرّمها وقال: "لا تذكري ذلك لأحد" فذكرته لعائشة فأظهره الله عليه، فأنزل الله "يا أيها النبيّ لم تحرّم" الآيات كلّها، فبلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كفر عن يمينه وأصاب مارية. وأخرجه ابن سعد وابن مردويه وابن المنذر والطبراني والهيثم بن كليب في مسنده والضياء المقدسي في المختارة من طريق نافع عن ابن عمر.

فهذان سببان صحيحان لنزول الآية، والجمع ممكن بوقوع القصتين: قصّة العسل، وقصّة مارية، وأن القرآن نزل فيهما جميعاً، وفي كلّ واحد منهما أنه أسرّ الحديث إلى بعض أزواجه.

مقصد السورة:

الله أحل الحلال وحرم الحرام، ولم يأذن بذلك لأحد من خلقه. ولأن الإنسان كثير الخطأ في اتباع الحلال والحرام {وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١)} ففرض الله تحلّة الأيمان بالكفارة {وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٢)}، أي: شرع الله العليم الحكيم له تحلّة الأيمان بالكفارة وحثّه على التوبة. فلا تأخذنا العاطفة في النساء والأموال والأولاد، ولا الخوف من مخلوق، ولا صعوبة الظروف، ولا الضعف، ولا إرضاء نفس أو شهوة أو وسوسة شيطان، في مخالفة أمر الله بتحريم حلال أو تحليل حرام، فنقع في العقاب، في يوم لا عذر فيه، إنما الجزاء على الأعمال. فإن أخطأ المؤمن أو خالف جهلاً فليسارع بالتوبة فالله غفور رحيم. (الحرام والحلال هو الحق فلا تساهل مع الحق).

ومقصدها نجده في الآيتين الأوليين (1-2)وفيهما عتاب من الله لنبيّه محمد صلى الله عليه وسلم، أن الله وحده هو من يحدد ما هو حلال وما هو حرام ولم يفوّض بهذا الشيء أحداً من خلقه. فكلّ من حرّم حلالاً من طعام أو

شراب أو غيره مراعاة لخاطر أحد أو يبتغي بذلك مرضاة أحد من الخلق فعليه كفارة ويصبح في حلّ من ذلك التحريم. وفي منتصفها أشارت إلى أن الله أحل الحلال ليدخل به بحسن عملهم المؤمنون الجنة.

وقال البقاعي: مقصودها الحث على تقدير التدبير في الأدب مع الله ومع رسوله صلى الله عليه وسلم ومع سائر العباد والندب إلى التخلق بالأدب الشرعي وحسن المباشرة لاسيما للنساء اقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم في حسن عشرته وكريم صحبته وبيان أن الأدب الشرعي تارة يكون باللين والأناة، وأخرى بالسوط وما داناه ومرة بالسيف وما والاه، وكل من اسميها التحريم والنبي صلى الله عليه وسلم موضح لذلك.

ملخص موضوع السورة:

نزلت في الفترة الواقعة ما بين السنة السابعة والثامنة من الهجرة، ومقصدها هو الإعلام بأن الله هو وحده من أحلّ الحلال وحرّم الحرام،

ولم يأذن بذلك لأحد من خلقه. ولأن الإنسان كثير الخطأ فقد شرع الله العليم الحكيم له تحلّة الأيمان بالكفارة وحثّه على التوبة. وتضمنت السورة ثلاث مجموعات من الآيات: ابتدأت ٥ آيات بالنهي عن تحريم ما أحل الله ابتغاء مرضات الناس، فمن فعل ذلك فعليه الكفارة والتوبة، ثم 4آيات الوعظ بأربعة أشياء هي: أن يقي المؤمنون أنفسهم وأهليهم النار،

وأن الكفار سيجزون ما كانوا يعملون،

وعلى المؤمنين التوبة النصوحة ليكفّر سيئاتهم ويدخلهم الجنة،

وجهاد الكفار والمنافقين، ثم 3آيات ضرب الله مثلاً امرأتي عبدين صالحين خانتاهما فأدخلتا النار، وامرأتين صالحتين في بيئة الكفر والفتن أنجاهما الله، كما يلي:

الآيات ١-٥)عتاب للنبي صلى الله عليه وسلم لمنعه عن نفسه الحلال الذي أحله الله له، يبتغي مرضات أزواجه {وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١)}.

وقد فرض الله الكفّارة لتحليل الأيمان {وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٢)}. إذ أسرَّ النبي إلى إحدى زوجاته حديثاً، فلما أخبرت به وأظهره الله {عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ (٣)}، وفي هذا العتاب وفرض تحلّة الأيمان وحثّ الزوجات على التوبة تنبيه على أن كل تصرّفات النبي صلى الله عليه وسلّم وزوجاته وأصحابه هي باتباع وحي الله، ولا دخل لبشر فيها. إن الله وليه وناصره، وجبريل وصالح المؤمنين، والملائكة أعوان له ونصراء، {عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ ..... ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا ٥

(الآيات ٦-٩)الوعظ بأربعة دروس (تضمنتها القصص) وهي،

الأول: توجيه المؤمنين إلى وقاية أنفسهم وأهليهم من النار، وألا تأخذهم العاطفة في مخالفة أمر الله بتحريم حلال أو تحليل حرام فيقعوا في العقاب، الثاني: تحذير الكفار بأن الله قد أقام عليهم العذر في الدنيا ولا عذر لأحد يوم القيامة إنما يجزون بما كانوا يعملون، الثالث: أمر المؤمنين بالتوبة توبة خالصة لوجهه لا عودة لمعصية بعدها كي يغفر لهم ويدخلهم الجنة، الرابع: أمر النبي بأن يجاهد الكفار والمنافقين وأن يغلظ عليهم، فلم يمنعهم مانع من الإيمان بل أرادوا لأنفسهم الكفر والنفاق فمأواهم جهنم وبئس المصير.

(الآيات ١٠-١٢)يضرب الله الأمثال للمؤمنين والكافرين بالقصص عن امرأتين مؤمنتين هما: امرأة فرعون ومريم ابنة عمران، حافظتا على إيمانهما تحت أصعب الظروف والفتن، وامرأتان كافرتان هما امرأة نوح وامرأة لوط لم تؤمنا في أحسن الظروف الإيمانية وهما زوجات أنبياء مرسلين.

اللهم اجعلنا من المسلمين المؤمنين المصدقين القانتين التائبين العابدين السائحين، وكفّر عنّا سيّئاتنا وأدخلنا برحمتك في جنّات النعيم.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنّ سورة من القرآن ثلاثون آية، شفعت لرجل حتى غفر له وهي: {تبارك الذي بيده الملك (١)}، الملك". وفي حديث عبد الله بن مسعود "قال: فهي المانعة تمنع من عذاب القبر."

عن أبن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "وددت أنّها في قلب كلّ مؤمن، يعني {تبارك الذي بيده الملك (١)}."

في الآيتين الأوليين (1،2)ربنا يعرف على نفسه بأنه: تكاثر خيره وبرُّه على جميع خلقه، بيده مُلك كل شيء، نافذ أمره وقضاؤه، وهو على كل شيء قدير. خلق الموت والحياة ليبلوا الناس أيهم أحسن عملاً. كما يلي:

تكاثرت بركات الله مالك كل شيء وهو على كل شيء قدير.

أي: كم هي عظيمة بركات الله وخيره وبرّه المتكاثر المديد الوافر

الغير منتهي على خلقه، خلقهم ليبلوهم وليكافئهم على حسن عملهم

(وهو الإيمان بأن الله هو الذي بيده الملك).

انظروا تبارك هذا فعله

ليختبر الإنسان حين حمل أمانة الإيمان مختاراً، سماوات ممتدّة متقنة الصنع، موت وحياة، وخالق رحيم، عالم بخلقه، وحماية دائمة من الشياطين،

تذليل للأرض مطيعة تؤتي أكلها، ورزق وأمان، يمسك كل شيء وينصر برحمته، وسمع وأبصار وأفئدة وهدى ورسالة وآيات وقصص وأمثال وحجج وإقامة الحجة وأدلة وإنذارات متتالية متكاثرة لم يتأملوها (وسيعترفون بالنذير وبالذنب (الآيات ٩، ١٠، ١١)ثم المصير وجنة ونار.

تبارك أي تكاثرت البركات والخيرات من قِبَلِه؛ وهي تُذكر في القرآن مع الخير الكثير الدائم الذي وسع جميع خلق الله.

فقد ذُكرت كلمة تبارك ٩ مرات في القرآن،

مع ملكه للسماوات والأرض وما بينهما،

وخلقه وتسخيره لهما،

ومع الليل والنهار،

وخلق الإنسان ومراحل خلقه وتصويره،

والجنات والأنهار،

ورزق الطيبات،

وتنزيل الفرقان يفرق بين الحق والباطل.

وفي الآية {تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام (٧٨)} الرحمن: فإن صفات الجلال: هي الصفات التي يجل عن الاتصاف بها كالظلم والعجز. وصفات الكمال والإكرام والجمال: هي الصفات الثابتة لله تعالى وتسمى الكمالية كالعدل والقدرة.

تباركت ربنا وتعاليت: وعلى نفس الصيغة وردت كلمة تعاليت التي تكررت في القرآن ١٤ مرّة، لتعني تعالى الله عمّا يشركون، أو عمّا يصفون له من البنات والولد والشريك، وتنزهه عن كل نقص. فالله تعالى فوق جميع مخلوقاته بذاته وصفاته الجليلة، وهو تسامى وترفع وتنزه عما نسب إليه من أن يكون له شريك أو صفة نقص.

فتبارك تأتي مع الخير والخلق والعطاء والرزق،

وتعالى تأتي مع تعاليه بذاته عن الحاجة لأحد أو أن يكون له شريك.